نظرات فى كتاب

« بعث الشعر الجاهلى »

تأليف الدكتور مهدى البصير

للأديب خليل أحمد جلو

الكتاب — كما يحدثنا المؤلف — عدة فصول من كتابه « الأدب العربي قبل الإسلام » الذى نقله إلى الفرنسية وعرضه بشكل أطروحة فى السوربون. فأخفق لأن المستشرقين لا يرحبون بكتاب يشيد بالأدب العربى ويحيى ما اندثر منه، فاضطر إلى تأليف كتاب فى الأدب الفرنسى البحت فاطمأنوا إليه وأجازوه الدكتوراه!

والكتاب — بتعريف آخر — هو مجموع المحاضرات التى ألقاها صاحبه على طلاب دار المعلمين العالية ببغداد

والكتاب إذا أردتُ أن يفطن إليه أهل العراق، قلت هو كل ما ألقاه الدكتور من أحاديث فى دار الإذاعة اللاسلكية فى الصيف المنصرم

ولا تحسبنى أيها القارئ الكريم من الكاذبين إذا تفقدته فى الأسواق فلم تجده، فإن وزارة المعارف قد اشترته وهو فى المطبعة بثمن يدل على عطف وتشجيع، فأنقذت صاحبه من عناء التصريف وحسرة البوار، وأخذت بما يروى : « إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » وهل أحد من الناس أولى من الأديب بالرحمة والإنعام فى هذا الزمان !؟

إن الدكتور كان بخيلاً على أصحاب المكتبات أن يرتزقوا منه، وكان ضنيناً على القراء أن ينتفعوا به . فهل أمن النقد حين استخفى كتابه عن السوق؟ وهل اطمأنت نفسه حين فرضه على طلابه فى دار المعلمين العالية فرضاً ألا تذيع نواقصه وتنشر عيوبه؟ وهل نجحت حيلته حين أذاعه فى المذياع العراقى ارتجالاً ولم يسمح للصحف والمجلات أن تنشره؟

لقد خابت ظنون الدكتور، ولم يفت النقاد المترصدين أن يصمدوا له ويتناوشوه. فاليوم عليه « البعث » وعلينا « الحساب »

ولأكن عند حسن ظن الدكتور! فلست أبغى التعريض بشخصه ولا المسّ بذاته وهو من ذوى الماضى المجيد، ومن دعاة الحركة الوطنية، وممن صاول وقارع البغاة المستعمرين، وممن لهم كرسى رفيع فى دار المعلمين العالية

اقتضى هذا الإطراء ما أعرفه عن الدكتور من ضيق الصدر بالنقد واحتباس نفسه منه سواء أكان موجهاً إليه أم إلى غيره. واقتضاه أيضاً سوء الظن بالنقاد والارتياب بما يؤاخذون به المخطئين. ألم تلاحظوا الدكتور زكى مبارك لا يفتأ يعلن صداقته وحبه لأحمد أمين فى رده عليه، وبعض الناس لا يفتأون يتهمونه بالأغراض والمقاصد، بل وأشركوا معه صاحب الرسالة؟

فليعلم الدكتور — غير معلم — أنى لا أضمر له كرهاً وليس لى معه مآرب، وأن الأدباء من حسناتهم النقد النزيه، ولعل ربك يريد أن يسبغ علىّ بعض حسناته حين قيض لى نقد كتاب « بعث الشعر الجاهلى »

أما بعد فإن كتابك يا سيدى ناقص من عدة وجوه لزم علينا تبيانها واستقصاؤها

أولاً: إنك اقتصرت فى بحثك على خمسة شعراء هم امرؤ القيس، وزهير، وعمرو بن كلثوم، والحارث، وعنترة، وتركت الآخرين مقبورين لم تبعثهم. فهل أنكرتهم وشككت فى تراثهم؟ وإذا كان ذلك فأين الدليل والبرهان؟ وإذا لم يكونوا من صلب بحثك فلم سميت الكتاب « بعث الشعر الجاهلى » الذى يقتضى ألا تدع ارتياباً فى شاعر جاهلى ولا شكاً فيما روى عنه من قريض. هل تعتقد أن ما أغفلته حقيقة مسلم بها لا تحتاج إلى التنويه والإشارة على الأقل؟

إن الذى يطمع أن يبعث الشعر الجاهلى يجب ألا يدع شاردة ولا واردة منه إلا استقصاها وامتحنها ، وإن من النقص الفظيع أن تكتفى فى بحثك بخمسة شعراء . وهل تناولت غير شرح معلقاتهم كأن لم يكن لهم من دون المعلقات قصائد وأبيات أخر تحتاج إلى التدقيق والتحقيق ؟!

ثانياً : لم يخطر على بالك أن تستعرض رأياً من آراء المستشرقين واستدلالات المنقبين الأثريين مثل « نولدكه » و « جويدى » وغيرهما من الذين كانوا الأساس الذى اعتمد عليه الدكتور « طه حسين » والمنبع الذى أخذ منه فى إنكار الشعر الجاهلى أو الإغراق فى الشك فيه . وركنت إلى المصادر العربية القديمة دون ترو واحتراس ودون جدال ولا مناقشة. ولخصت حياة الشعراء متجنباً كل ما يدعو إلى الشك والارتياب ويعوزه التدليل والبرهان . وشرحت المعلقات ولم تر حاجة أن تسهلها ببحث يقرر أنها جاهلية وأنها ليست فى مجموعها أو بعضها من انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاة ، أو تكلف القصاص ، أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين . وهل يصح لكاتب يريد أن يبعث الشعر الجاهلى بعد أن حامت حوله الشكوك والأوهام أن يغفل عن ذلك ؟ وهل يبعث الشعر الجاهلى بسرد حياة الشعراء وشرح معلقاتهم كما يدرسها طلاب المتوسطات

ولا بد أن أروى لك نماذج من بحثه لتستدل على صدق ما أقول ولتؤمن أن البحث العلمى الصحيح يمقت ذلك

يقول الدكتور البصير مقرراً وجود عمرو بن كلثوم والحارث ابن حلزة اليشكرى : « إن منابع التاريخ العربية فى القرون الوسطى تذكرهما وتروى لهما . إذن فلا سبيل إلى إنكار وجودهما ولا إلى الشك فى شاعريتهما » (ص ٤٨ — ٤٩) . ويعتقد أن القارئ قد أقنعه هذا البرهان ، وأنه لا يمكن أن يقال أكثر من ذلك فى إثبات الشاعرين ، فيصدر أمراً عسكرياً « بالشروع بالبحث حالاً » عن شرح معلقتيهما

مهلاً يا دكتور ! إن قولك لا يطمئن إليه أشد الناس سذاجة حتى تنفى عن ذهنه ما أحيط به عمرو بن كلثوم من أساطير جعلته أقرب إلى أبطال القصص منه إلى أشخاص التاريخ . وحتى تقنعه بالنص التاريخى أو الأدلة المنطقية التى تقرب إلى عقله صحة ما وقع بين آل المنذر وبنى تغلب من ناحية ، وبين ملوك الفرس وأهل البادية من ناحية أخرى . وحتى تدحض شكوك الرواة فى بعض المعلقة واختلافهم فى الأبيات الأولى : أقائلها عمرو بن كلثوم ، أم قالها عمرو بن عدى بن أخت جذيمة الأبرش . وأنت مضطر أيضاً ، إذا أردت أن تفهم أشد الناس سذاجة ، أن تعلل ما فى قصيدته من تكرار فى الأبيات والحروف ، وشذوذ عن سلامة الطبع البدوى.

وجدير بك وأنت تبحث فى قصيدة الحارث التى آمنت بصحتها أن تقنع القارئ بأنها ارتجلت ارتجالاً ، ولم يفكر فيها الشاعر تفكيراً طويلاً ويرتب أجزاءها ترتيباً دقيقاً .

تراني أيها القارئ الكريم أطيل عليك فيما يجب أن يتناوله الدكتور مهدى البصير فى بحثه عن الشاعرين : عمرو والحارث ومعلقتيهما. ولكن الحق معى فإن كتابه يدعى (بعث الشعر الجاهلى) لا « بحث فى الشعر الجاهلى » ، وإن الكتاب ألقى على طلاب دار المعلمين العالية ولم يلق على طلاب المتوسطات . وإنى منتقد يجدر به أن يدلى إلى الدكتور بما لاحظه من نقص وإغفال ويرشده إلى طريقة البحث العلمى الصحيح لعله ينتصح ويتلافى هذه الأغلاط

ولندع ابن كلثوم والحارث ولننتقل إلى زهير وامرئ القيس

أما زهير بن أبى سلمى فإن الدكتور لا يجد صعوبة ولا مشقة فى إقرار شخصيته التى تتناقلها المصادر العربية القديمة وأشعاره التى ترويها، فيحدثنا فى مستهل حديثه عن زهير: «إننا لسنا بحاجة إلى إقامة الأدلة التاريخية على أن زهير بن أبى سلمى قد وجد حقيقة وقرض الشعر » (ص ٣١) ثم يقتصر « على درس معلقة زهير » ويقصد بالدرس هنا تفسير الغريب من ألفاظ المعلقة وشرح بعض المعانى فقط . ولا أظنك ترميني بالغلو إذا قلت إن الذى يريد أن يبعث الشعر الجاهلى ملزم فى كلامه عن زهير أن يبحث عن نسبته إلى مزينة ، وإقامته فى غطفان ، وكونه من أسرة معروفة بقرض الشعر ؛ وحظوته عند هرم ، ورأى النقاد الحديثين والرواة الأقدمين فيه ، وعلاقته بالإسلام مع ذكر الأدلة والشواهد التى تقنع القارئ بصحة ما يقول . وهل يثبت ما ذكره فى مستهل حديثه أن قصيدة الشاعر جاهلية وأنها لزهير وأن ليس للمنتحلين يد فيها ؟ وهل يصح له أن يغفل ما يتحدث به الرواة عن زهير : أنه تنبأ بالإسلام قبل البعثة، وأنه أوصى ابنيه كعباً وبجيراً أن يسلما، وأن له شعراً فيه أصول دينية إسلامية ، وأن النبى رآه فاستعاذ بالله من شيطانه فانقطع زهير عن الشعر حتى مات ؟

[البقية فى ذيل الصفحة التالية]